سفارتا فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ومحمد بن سالم بن واصل إلى أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة: دراسة مقارنة

د. موضي بنت عبدالله السرحان

أستاذ التاريخ الإسلامي الوسيط المشارك

كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، جامعة الملك سعود، المملكة العربية السعودية

modyalsarhan@gmail.com

الملخص:

يتناول هذا البحث بالدراسة سفارتين من أهم السفارات التي أُرسلت إلى أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة خلال حقبة الحروب الصليبية في عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية، السفارة الأولى هي سفارة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور فردريك الثاني Fredrick II ، التي أرسلها السلطان الكامل محمد في خريف سنة 624هـ/1226م بهدف الاستعانة به في نزاعه ضد أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والأشرف موسى صاحب خلاط والجزيرة. والسفارة الثانية أرسلها الظاهر بيبرس في شهر رمضان من سنة 659هـ/1260م، وكان سفيره فيها المؤرخ محمد بن سالم بن واصل إلى الإمبراطور مانفريد بن فردريك Manfrred ، وذلك لتوثيق عرى الصداقة بين الطرفين ضد الخطر المغولي.

ويهدف هذا البحث إلى معرفة الظروف المحيطة التي أدت إلى إرسال هاتين السفارتين، والنتائج التي حققتها، وأسباب اختيار سفرائهما، وأثرهما في تطور العلاقات بين الدولة الأيوبية والدولة المملوكية من جهة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة من جهة أخرى.

الكلمات المفتاحية: السلطان الكامل، الظاهر بيبرس، الإمبراطور فردريك الثاني، الإمبراطور مانفريد، العلاقات الدبلوماسية.

Abesract

Embassies of Fakhr al-Din ibn Shaykh al-Shyoukh and Ibn Wasel to the Emperors of the Holy Roman Empire: A Comparative Study

This paper examines two of the most important embassies sent by the Ayyubid and Mamluk states to the Holy Roman Empire during the Crusader era. The first embassy of Fakhr al-Din Yusuf ibn Shaykh al-

Dr. Mody Abdullah al-Sarhan
King Saud University, Saudi Arabia
modyalsarhan@gmail.com

Shyoukh to Emperor Frederick II, in the autumn of 624 AH/1226 A.D., sent by al-Kamil Muhammad Ayyubid, to help him against his brothers, the Ayyubid kings in the Levant. And the second embassy of Muhammad b. Salem b. Wasel to the Emperor Manfrred, in Ramadan 659 A.H./1260 AD, sent by al-Zahir Baybars, to ally with him against the Mongols.

This paper aims to examine the reasons, results achieved, reasons for choosing these ambassadors and the political surrounding these embassies in the East and West.

Keywords: Crusades, Al-Kamil Muhammad Ayyubid, Frederick II, al-Zahir Baybars, Ibn Shaykh al-Shyoukh ibn Wasel.

المقدمة:

مثّلت السفارات المتبادلة – ذات الطابع السياسي– بين القوى الإسلامية والقوى الأوروبية نهجاً متبعاً في حقبة العصور الوسطى، باعتبارها وسيلة أنجع لحلحلة الخلافات والصراعات بطرق سياسية ودبلوماسية بدلاً من الصدام العسكري المسلح. ولهذا نجد المصادر قد احتوت على الكثير من أخبار هذه السفارات عند سردها للأحداث، واهتمت بذكر السياق السياسي أو الاجتماعي الذي تمت خلاله، كما اهتمت بالحديث عن موضوعها، وأهدافها، وأعضائها، والنتائج التي ترتبت عليها.

ضمن هذا الإطار، يأتي هذا البحث ليتناول سفارتين من أهم السفارات التي أُرسلت إلى أباطرة أسرة الهوهنشتاوفن Hohenstaufen، حكام الإمبراطورية الرومانية المقدسة، والتي كانت تحتل مكانة كبيرة في الدبلوماسية العربية خلال حقبة الحروب الصليبية في عهد الدولتين الأيوبية والمملوكية. السفارة الأولى هي سفارة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ إلى فردريك الثاني Fredrick II والتي أرسلها السلطان الكامل محمد في خريف سنة 624هـ/1226م بهدف الاستعانة به في نزاعه ضد أخويه المعظم عيسى صاحب دمشق والأشرف موسى صاحب خلاط والجزيرة. والسفارة الثانية هي سفارة المؤرخ محمد بن سالم بن واصل إلى مانفريد بن فردريك Manfred التي أرسلها الظاهر بيبرس في شهر رمضان سنة 659هـ/1261م لتوثيق عرى الصداقة بين الطرفين ضد الخطر المغولي.

سوف يجري تناول هاتين السفارتين في ضوء عدد من المحاور، يتناول المحور الأول نبذة عن مفهوم السفارة والشروط الواجب توافرها في السفراء خلال هذه المرحلة. ثم سيتناول المحور الثاني ترجمة مفصّلة لكل من فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، والمؤرخ محمد بن

سالم بن واصل وأسباب اختيارهما لتولي هذه المهمة. أما المحور الثالث فسيعرّج على الأوضاع السياسية المحيطة بإرسال السفارتين سواء في الغرب أو الشرق. أما المحور الرابع فسوف يتناول أحداث كل سفارة بداية من تاريخ انطلاقها، وخط سيرها، والهدايا المرسلة معها، والمهام المكلفة بها، والمناقشات السياسية التي جرت خلالها، والنتائج التي نجمت عنها، إلى غير ذلك مما يمكن ذكره مما ورد في المصادر.

أولاً: مفهوم السفارة والشروط الواجب توافرها في السفراء

يعدُّ إرسال السفراء والرسل والوكلاء والوفود أحد المظاهر المهمة في تاريخ العصر الوسيط، حيث أن هذه الإرساليات كانت الوسيلة الأولى في التواصل بين الدول وبعضها بعضاً. والسفارة تتنوع تبعاً لتنوع الظروف والأحوال، وتبعاً للهدف والغرض من إرسالها، فهناك سفارات تحمل طابعاً عدائياً، تهدد وتنذر بحرب أو اعتداء، وأخرى تحمل طابعاً سلمياً، تدعو إلى عقد هدنة أو صلح، وتترك مجالاً للمفاوضات بين الخصوم[1].

ومصطلح السِّفارة في اللغة له مشتقات متعددة، فأصل المصطلح من "سِفْر" أو "الانْسِفار" أي الانحسار، والسِّفرُ هو الكتاب، والجمع أسفار. والسَّفرة بمعنى الكَتبة، والمفرد سَافر أي كَاتب، يقول تعالى: "بِأَيْدِي سَفَرَةٍ"[2]، أي الملائكة الذين جعلهم الله سُفراء بينه وبين رسله[3]، وقيل السَّفَرة هم الكتبة من الملائكة أو الأنبياء ينتسخون الكتب من اللوح أو الوحي[4]. ونقل ابن منظور عن الزّجاج أن الكاتب يقال له سَافر، وللكتاب سِفر، لأنه يُبيّن الشيء ويوضحه، وسفرت المرأة وجهها إذ كشفت النقاب عنه فهي تسفر سفوراً، والسفير: الرسول المصلح بين القوم والجمع سفراء[5]. والسفارة اصطلاحاً تعني بعْث ولي الأمر لشخص معتمد لديه إلى جهة معينة لمباشرة مهمة معينة، فالسفير يوضح ما ينوب عنه

---

(1) أحمد عبدالسلام ناصف، "أغراض السفارات إلى مصر في العصر المملوكي: القوى الإسلامية والمغول أنموذجاً 648-923هـ/1250-1517م"، مجلة الاستواء، جامعة قناة السويس، 2017م، عدد خاص، ص513؛ آسيا سليمان نقلي، "السفارات المتبادلة في عصر صلاح الدين الأيوبي (569-589هـ/1179-1193م"، مجلة فكر وإبداع، رابطة الأدب الحديث، الرياض، ج4، (2007م)، ص435.

(2) سورة عَبَسَ: آية 15.

(3) محمد بن أحمد الأنصاري القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2 (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م)، ج19، ص216.

(4) ناصر الدين أبو سعيد عبدالله بن عمر البيضاوي، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ)، ج5، ص287.

(5) محمد بن مكرم بن علي ابن منظور، لسان العرب، ط3 (بيروت: دار صادر، 1414هـ)، ج4، ص370.

ويكشفه[6]. وهي الوفود أو البعثات المتبادلة بين الدول لتنسيق وإدارة العلاقات فيما بينها، بهدف تحقيق المنافع والمصالح المشتركة من خلال عقد معاهدات أو هُدن أو إبرام صلح أو تبادل تجاري[7].

وكان المتولي للسفارة يطلق عليه الرسول، أو القاصد، أو السفير. والرسول نُعت بذلك من كونه حاملاً للرسالة، أما القاصد فهو مشتق من الفعل "قَصَدَ"، والتي تعني الآتي، وتعني كذلك مبعوث أو وسيط، مما يدل على السفراء، لكن أميتاي بيرس ذكر تفسيراً آخر لمصطلح "قاصد" في المصادر المملوكية، هو أن المصادر كانت تستخدم هذا المصطلح لتشير إلى الجواسيس الذين كان يستخدمهم السلطان لاستطلاع أخبار العدو في أراضه[8].

أما مصطلح سفير، فلم يكن دارج الاستخدام في هذه الحقبة، وكان يقتصر وروده في كتب الإنشاء تحت مدلول محُدد، وهو الرسول المرسل في طلب الصلح، أو تاجر الرقيق فيذكر القلقشندي:" السّفيريّ: قال في عرف التعريف، هو من الألقاب الخاصة بالدّوادار، على أني قد رأيته في بعض الدستاير الشامية قد كتب به لبعض التجار الخواجكيّة[9]، لسفارتهم بين الملوك وتردّدهم في الممالك لجلب المماليك والجواري ونحو ذلك، وهو منسوب إلى السفير: وهو الرسول المصلح بين القوم، ولم يستعمله الكتّاب مجرداً عن الياء [أي سفيري]"[10]. وبالتالي فإن "الرسول" و"السفير" مترادفين، والمعنى بنيهما يشترك في مهمة نقل الأخبار والرسائل إلى الدول المختلفة وتولي المفاوضات والحوار بشأن ما يهم الدولة، إذ استعملت الكلمتان "السفير والرسول" اصطلاحاً بمعنى واحد للموفد المكلف بمهام من الملك أو السلطان أو الوزير[11].

---

(6) حسن محمد سفر، "السفارات في النظام الإسلامي"، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، س3، ع9، 1411هـ، ص117.

(7) بركات محمد مراد، "السفارات العربية: رؤية تاريخية"، مجلة شؤون اجتماعية، جمعية الاجتماعيين في الشارقة، مج24، ع95، 2007، ص121.

(8) Amitai-Preiss, *Mamluks Mongols and: The Mamluk-Ilkhanid war, 1260-1281*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1995), P. 210.

(9) يُقصد بهم التجار الأجانب.

(10) شهاب الدين أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (القاهرة: المطبعة الأميرية، 1913-1919م)، ج1، ص116-118.

(11) عثمان بن جمعة ضميرية، السفارة والسفراء في الإسلام، (جدة: رابطة العالم الإسلامي، 1999م)، ص30.

وقد فرضت طبيعة المهمات التي كُلّف بها الرسول أو السفير، أن يتم اختياره بعناية شديدة، وقد ذكرت المصادر مجموعة من الشروط والصفات التي كان لابد من توافرها في الرسول الذي يقوم بمهام السفارة، فهو يمثّل مُرْسله، ويتكلّم بلسانه، ويحمل رسالته إلى الملوك والسلاطين نيابة عنه، ويفاوض ويبرم المعاهدات والعقود، لذا كان يجب عليه أن يتحلى ببعض الصفات الجسدية والخلقية والثقافية[12].

وقد حددت المصادر قواعد وضوابط لاختيار الرسل والسفراء والمبعوثين، وكان يتم اختيارهم من فئات معينة، هي فئة القضاة، والفقهاء، والعلماء، والمحدثين، وكبار موظفي الدولة من وزراء وأمراء وقادة جيوش، ومن الكتّاب الذين يعملون في ديوان الإنشاء[13]. وكانت من أهم الشروط الواجب توافرها في الرسول أن يكون من "أهل الشرف والبيوتات"، فهم غالباً ما يكونون من بين الشخصيات ذات المنزلة الرفيعة في المجتمع، والمعروفة بالفطنة والبلاغة، ورجاحة العقل، وسرعة البديهة، والحصافة في الكلام مما يجعلهم أهلاً لهذه المهمة، وأن يمتاز بصورة حسنة، وجمال الهيئة، والصوت الجهوري، وحدّة البصر، وأن يكون حسن الوجه وليس دميماً[14]. فقد أورد العباسي في كتابه "ترتيب الأول" صفات من يرشح للسفارة: "أن يكون صحيح العقل، حاضر البديهة، جيد العبارة، ظاهر النصيحة، موثوقاً بدينه وأمانته، حسن الاستماع والتأدية، كتوماً للأسرار، عفيفاً عن الأطماع، غير منهمك في الفواحش والسكر"[15]. وسوف نلاحظ أثناء حديثنا عن مدى توافر هذه الشروط في كل من فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، وجمال الدين محمد بن سالم بن واصل.

---

(12) الحسين بن محمد ابن الفراء، رُسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1972م)، ص 35–36.

(13) هو الديوان المشرف على تحرير الرسائل المتبادلة بين السلطان وولاته وأمرائه وعماله في أقاليم الدولة، فضلاً عن إشرافه على الرسائل المحررة من السلطان إلى الدول الأجنبية.، كما كانت تصدر عنه جميع المناشير والمراسيم والسجلات والتوقيعات والملاطفات، وفيه كانت أرشيف حفظ الرسائل الواردة من ملوك الدولة الأخرى ونسخ من المعاهدات والمهادنات والاتفاقيات التي وقعتها الدولة مع غيرها من الدول الأخرى. القلقشندي، صبح الأعشى، ج1، ص139–140؛ ريهام علي يحيى الغامدي، "دور كتاب ديوان الإنشاء في العلاقات الدولية"، مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، كلية التربية، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، ع206، ديسمبر 2018م، ص249–272.

(14) ابن الفراء، رُسل الملوك، ص38.

(15) الحسن بن عبدالله العباسي، آثار الأول في ترتيب الدول، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، (بيروت: دار الجيل، 1409هـ/1989م)، ص191–192

ثانياً: التعريف بفخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ وجمال الدين ابن واصل

أ) فخر الدين يوسف ابن الشيخ الشيوخ سفيراً للملك الكامل محمد

فخر الدين يوسف بن محمد، ينسب إلى شيخ الشيوخ[16] عماد الدين عمر بن حَمُّوية[17]، وهو أحد رجال نور الدين محمود بن زنكي، إذ أسند إليه مشيخة خانقاه دمشق في سنة 563هـ/1167م، وفوّض إليه إدارة الرّبُط والزوايا والأوقاف في بلاد الشام[18]، وأخذت الأسرة تتوارث هذه الوظيفة، وبهذا عُرفت بلقب شيخ الشيوخ[19].

عملت أسرة شيخ الشيوخ في خدمة سلاطين الدولة الأيوبية، وكانت تحظى بثقة ورعاية سلاطينها منذ عهد السلطان صلاح الدين الأيوبي الذي أسند إلى والد فخر الدين يوسف، صدر الدين محمد ابن عماد الدين عمر، عدداً من الوظائف المهمة، منها وظيفة مشيخة الصوفية بمصر، والإشراف على المدرسة الصلاحية بالقاهرة[20]، لما لمس فيه من سعة العلم وعمق المعرفة وشدة الصلاح والتقوى، وهي صفات اجتمعت في أفراد أسرة شيخ الشيوخ دون استثناء، مما حدا بالأيوبيين من تقريبهم إليهم والاعتماد عليهم في معظم شؤون دولتهم السياسية والعسكرية والدينية، خاصة وأن ملوك بني أيوب كانوا هم الآخرون يتمتعون بحب شديد للمعرفة والتعمق فيها وتقدير كبير للعلم والعلماء، فالأبناء الأربعة الذين تركهم

---

(16) شيخ الشيوخ هو لقب ديني يطلق من يتولى الإشراف على مؤسسات الطرق الصوفية كالزوايا والربط والخوانق. انظر: القلقشندي، صبح الأعشى، ج4، ص200؛ تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، (لندن: مؤسسة الفرقان الإسلامي، 2003م)، ج2، ص727-729.

(17) تنسب أُسرة بني حَمُّوية إلى أسرة صوفية فارسية، وهم فقهاء على المذهب الشافعي، وينسبون إلى إحدى قرى جُوَين في إقليم خراسان. انظر: عبدالعظيم بن عبدالقوي بن عبدالله المنذري، التكملة لوفيات النقلة، حققه وعلق عليه: بشّار عواد معروف، ط2، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت)، مج3، ص15-16.

(18) قطب الدين محمد بن موسى اليونيني، ذيل مرآة الزمان، (القاهرة: دار الكتاب الإسلامي، 1413هـ/1992م)، ج8، ص272؛ جمال الدين محمد بن سالم بن واصل، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرون، (القاهرة: دار القلم، د.ت)، ج3، ص257.

(19) شهاب الدين عبد الرحمن بن إسماعيل أبو شامة، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ/2002م)، ص125؛ المقريزي، الخطط، ج2، ص33-34.

(20) عماد الدين أبو عبدالله محمد بن محمد الأصفهاني ، الفتح القسي في الفتح القدسي، (القاهرة: دار المنار، 1425هـ/2004م)، ص301-302؛ عبدالرحمن بن إسماعيل المعروف بأبي شامة، الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997م)، ج4، ص172.

صدر الدين بعد وفاته، وهم: عماد الدين عمر، وكمال الدين أحمد، ومعين الدين حسن، وفخر الدين يوسف، قد نالوا المكانة نفسها التي احتلها والدهم عند صلاح الدين لدى خلفائه، وأُسند إليهم الكثير من الأعمال، وكانوا محل ثقتهم ومعيّتهم، وبلغ ذروة مجدهم خلال عهد السلطان العادل وابنه الكامل، وفي هذا يقول ابن واصل: "إن هؤلاء الأربعة كانوا أخص الناس بخدمة الكامل، وحازوا في زمانه مكانة مرموقة، حيث كان يعد أخاً لهم في الرضاعة عن طريق أمهم ابنة القاضي شهاب الدين ابن أبي عصرون"[21]، وقد ذكروا في المصادر "بأبناء الشيخ"، أو "أبناء شيخ الشيوخ"[22]، نسبة إلى هذه الوظيفة المرموقة التي تناوبوا عليها منذ فترة طويلة مضت.

وعلى الرغم من تولي إخوة فخر الدين الثلاثة مشيخة الصوفية، لما اشتهروا به من الورع والتقوى والتفقه في الدين والعلم بالأصول، إلا أن فخر الدين نفسه لم يتولى هذه الوظيفة مع توفر هذه الشروط فيه، ورأى فيه الملك الكامل محمد بصيرة نافذة ورجاحة عقل ومضاء عزيمة وعلو همة، أو كما وصفه العماد الحنبلي: "محتشماً سيداً معظماً ذا عقل ورأي ودهاء وشجاعة وكرم"[23]، هذا إلى جانب تضعلّه في كثير من فروع المعرفة الإنسانية إلى جانب العلوم الدينية، وهذا دفع ابن واصل أن يخصه دون إخوته بصفة متميزة وهي أنه: "كان فاضلاً متأدباً يشارك في كل فن"[24]. ولذا أراد الكامل محمد أن يفيد من ذكائه، ولم يتركه يحذو حذو إخوته وأبيه في أن يتولى وظيفة شيخ الصوفية، وإنما جعله أحد الأمراء وألبسه الشربوش[25] والقباء بعد أن كان يلبس العمامة[26]، وفي ذلك إشارة إلى سمات شخصية فخر الدين ابن شيخ الشيوخ التي تفرض مهاماً معينة سوف يكلّفه بها الكامل محمد.

---

(21) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص170. وابن عصرون هو شهاب الدين عبدالسلام بن المطهر بن عبدالله بن عصرون الحلبي، فقيه عابد زاهد، توفي في دمشق في سنة 632هـ/1243م. انظر: اليونيني، مرآة الزمان، ج8، ص692-694.

(22) عماد الدين إسماعيل بن علي أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه: محمود أيوب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1997م)، ج2، ص221-222؛ عمر بن مظفر بن عمر ابن الوردي، تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، (بيروت: دار المعرفة، 1389هـ/1970م)، ج3، ص208.

(23) عبد الحي بن أحمد بن محمد ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، (دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ/1986م)، ج5، ص239.

(24) ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، ص169.

(25) الشربوش هو قلنسوة طويلة أعجمية يلبسها الأمراء، وهي الشارة التي يتميزون بها، ولا يرتديها رجال العلم والدين، مثل القضاة والكتاب وغيرهم، وظلت تستخدم في مصر حتى ألغي استعمالها في زمن المماليك

وقد أفاضت المصادر في وصف شخصية فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ، فقد نُعت برجاحة العقل، والرئاسة، وحسن التدبير، وكمال السؤدد، والفضل، والأدب، والجود، والكرم، والجدارة بالملك، والشجاعة والفروسية، والهيبة والوقار، وكان محبوباً من الناس، العام منهم والخاص[27]. ولم يصل أحد من إخوته إلى ما وصل إليه من علو المكانة والرتبة والمنزلة، فكان يقف على بابه، ويركب في خدمته، سبعون أميراً سوى المماليك والخدم[28]. وكان يُكنّى بأبي بكر، وبأبي الفضل، وبأبي المظفر، وولد في دمشق سنة 582هـ/1186م، ونشأ بها وتلقى تعليمه وتربيته فيها، ونال منزلة كبيرة عند الكامل محمد، فأولاه ثقته، ولم يكن يُخْفِي عنه سرًا، واعتمد عليه في مختلف الشؤون السياسية والعسكرية بدولته[29]. حيث يتمتع بمكانة خاصة، فضلاً عن أدواره السياسية والعسكرية المشهودة التي قام بها خلال الحملتين الصليبيتين الخامسة والسادسة، فقد أشار سِبطُ ابن الجوزي[30] إلى أن فخر الدين كان رفيقاً للسلطان الكامل في جميع أحداث الحملة الخامسة، وكان يُشير عليه بكثير من الآراء السديدة[31]، أما في الحملة الصليبية السادسة، فقد تولى عمل الترتيبات النهائية الخاصة بمعاهدة يافا سنة 626هـ/1229م بين السلطان الكامل محمد، والإمبراطور فردريك الثاني، حيث كان المبعوث السياسي الخاص للكامل، وقد أعجب الإمبراطور بفخر الدين يوسف،

البرجية. انظر: رجب عبدالجواد إبراهيم، المعجم العربي لأسماء الملابس، (القاهرة: دار الآفاق العربية، 1423هـ)، ص262.

(26) كانت العمامة لباس العلماء والقضاة والفقهاء ورجال الجهاز الإداري، ولذا أطلق عليهم المعممون، إشارة إلى لبسهم للعمامة تمييزاً لهم عن الأمراء الذين يرتدون الشربوش. انظر: صلاح الدين خليل بن أيبك الصفدي، الوافي بالوفيات، تحقيق: مجموعة محققين، (فسبادن: فرانز شتاين، 1974– 1997م)، ج29، ص318؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص215.

(27) صلاح الدين محمد بن شاكر الكتبي، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ت)، ج4، ص366؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص214–215.

(28) تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين السبكي، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح الحلو، ج8، ط2، (د.م: دار هجر، 1413هـ/1992م)، ج8، ص363–364.

(29) الصفدي، الوافي بالوفيات، ج29، ص320.

(30) كان سبط ابن الجوزي مقرباً من ملوك الدولة الأيوبية، وحظي عندهم بمكانة رفيعة جعل روايته لأحداث هذه الفترة بالغة الأهمية، مما سينعكس لاشك على روايته لأخبار فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ.

(31) يوسف بن قزأوغلي سبط بن الجوزي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، (بيروت: دار الرسالة العالمية، 2013م)، ج22، ص347. انظر أيضاً الرواية التي نقلها ابن تغري بردي بتوسع عن السبط. أبو المحاسن يوسف ابن تغري بردي، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1963م)، ج6، ص243–244.

وتوطَّدت بينهما صداقة كبيرة، لعل مما يدل على ذلك نص المحاورة بينها، وقد أورد ابن واصل جانباً منها فيقول: "وبلغني أنه لما كان الأنبرطور بعكا قال للأمير فخر الدين بن الشيخ – رحمه الله – أخبرني عن الخليفة الذى لكم ما أصله؟ . فقال فخر الدين: هو ابن عم نبينا محمد صلى الله عليه وسلم، أخذ الخلافة عن أبيه، وأخذها أبوه عن أبيه، فالخلافة مستمرة في بيت النبوة، لا تخرج منهم، فقال الأمبرطور: ما أحسن هذا، لكن هؤلاء القليلوا العقول –يعنى الفرنج– يأخذون رجلا من المزبلة ليس بينه وبين المسيح نسبة ولا سبب، جاهلا فَدْماً[32]، يجعلونه خليفة عليهم، قائمًا مقام المسيح فيهم، وأنتم خليفتكم ابن عم نبيكم، فهو أحق الناس بمرتبته"[33].

ب) جمال الدين محمد بن سالم بن واصل سفيراً للظاهر بيبرس

يُنسب جمال الدين محمد بن سالم بن نصر الله بن واصل إلى بيت حموي عريق، كان والده فقيه قاضٍ، اعتنى بتعليمه وتربيته، وقد أتاحت مكانة أبيه أن يتعرف عن قرب إلى بعض ملوك عصره، حيث عاصر عدداً من أمراء وملوك البيت الأيوبي سواء في مصر أو بلاد الشام أو الجزيرة، مثل المعظم عيسى صاحب دمشق[34]، والملك الناصر داود صاحب الكرك[35]، والملك الكامل محمد صاحب مصر، والملك تقي الدين محمود صاحب حماة، والصالح نجم الدين أيوب وابنه المعظم تورانشاه[36].

---

(32) الفَدْم من الناس العيي عن الحجة والكلام مع ثقل ورخاوة وقلة فهم، وهو أيضاً الغليظ الثمين الأحمق الجافي. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص251، هـ 2.

(33) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص251.

(34) الملك المعظم عيسى بن العادل محمد، ولد بالقاهرة سنة 576هـ/1180م، وكانت نشأته بدمشق، وقد اتصف بالحزم والدهاء، وكانت وفاته في دمشق سنة 626هـ/1229م. انظر: شمس الدين محمد بن أحمد الذهبي، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط3، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م)، ج22، ص128؛ العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م)، ج3، ص194؛ سبط بن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص285–289.

(35) الملك الناصر داود ابن الملك المعظم عيسى ابن الملك العادل محمد بن أيوب، حكم دمشق بعد وفاة والده المعظم عيسى في سنة 624هـ/1227م، ثم دخل في الصراع الذي قام بين الملوك الأيوبيين في الشام ومصر على السلطة إلى أن استقر به المقام في الكرك التي أخذها منه الصالح نجم الدين أيوب في سنة 647هـ/1249م فتوجه إلى صاحب حلب الملك الناصر يوسف، الذي استضافه لفترة ثم غضب عليه فسجنه وتوفي بالطاعون في البويضا على حدود دمشق سنة 656هـ/1258م، انظر: عمر بن أحمد بن هبة الله ابن العديم، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكّار، (بيروت: دار الفكر، د.ت)، ج7، ص3453 فما بعدها؛ الكتبي، فوات الوفيات، ج1، ص419؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج13، ص301.

(36) للمزيد عن علاقة ابن واصل بملوك البيت الأيوبي انظر: سمير حسين عبدالكريم، خلفاء صلاح الدين عند

تكونت شخصية ابن واصل في هذا المناخ التعليمي والسياسي الثري، فقد ولد في مدينة حماة سنة 604هـ/1208م، فيقول: "كان مولدي ثاني شوال سنة أربع وستمائة"[37]. وتلقى هناك تعليميه، وبرز نبوغه في عدة علوم، منها أصول الدين، والفقه، والمنطق، والهندسة، والتاريخ. وقد زار العديد من بلاد المشرق العربي وعواصمه خلال رحلاته المتواصلة، فذهب إلى دمشق، والكرك، وبغداد، والقاهرة وغيرها، مما كان له أثر كبير في إثراء وتعميق ثقافته[38].

وقد وُصف ابن واصل بالعالم المتمكن من علمه، حيث كان يتمتع بمقدرة عالية في التعبير، وذا بديهة حاضرة أخّاذه، فضلا عن تمرسه على أساليب الإنشاء والكلام، وكان صاحب ثقافة واسعة، يمتاز بحدة الخاطر وسداد الرأي والنجدة والإقدام والحنكة السياسية والثقافية العالية، فقد درّس وألف في العديد من الفنون، مثل فنون الأدب، والطب، والمنطق، وعلم الهيئة، والفلك والرياضيات، مع حافظة قوية ومقدرة بارعة في التأليف والتصنيف، وبراعة في التأريخ وعرض الوقائع والأحداث بأسلوب سهل دون تعقيد، وقد تمتع بذهن متقد، وذكاء شديد، نوّه به كل الذين كتبوا سيرته وترجموا له، هذا مع اشتغاله بالتدريس والقضاء مدة طويلة[39]. وقد ذكر ابن العماد الحنبلي عن ابن واصل: "كان إماماً عالماً بعلوم كثيرة، خصوصاً العقليات، مفرطاً في الذكاء، مداوماً على الاشتغال والتفكّر في العلم، حتى كان يُذهل عمن يجالسه، وعن أحوال نفسه، وصنّف تصانيف كثيرة في الأصلين، والحكمة، والمنطق، والعروض والطب والأدبيات"[40].

وقد أنشأ ابن واصل أثناء إقامته بمصر علاقات واسعة مع أعيانها من العلماء والأمراء، فكانت تربطه بالأمير حسام الدين بن أبي علي الهذباني[41]، نائب السلطنة بالديار

ابن واصل في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، دراسة تاريخية منهجية 589-648هـ/1194-1260م، (غزة، رسالة ماجستير غير منشورة، 2013م).

(37) ابن واصل، مفرج الكروب، ج3، ص4، 228.

(38)ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص311.

(39) خليل بن أيبك بن عبدالله الصفدي، أعيان العصر وأعوان النصر، تحقيق: الدكتور علي أبو زيد وآخرون، (بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر، 1418هـ/1998م)، ج4، ص448-449.

(40) ابن العماد الحنبلي، شذرات الذهب، ج7، ص766.

(41) حسام الدين أبو علي بن محمد بن أبي علي الهَذَباني، وأحد كبار الأمراء في دولة الصالح نجم الدين أيوب، وكان أتابكًا لولده المعظم توران شاه، ثم تولى منصب نائب السلطنة عن الصالح أيوب بدمشق ثم بمصر، وتوفي في سنة 658هـ/1259م. انظر: أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص208؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج5، 189 ؛ الصفدي، الوافي بالوفيات، ج22، ص 102.

المصرية في أواخر عهد الصالح نجم الدين أيوب علاقة وطيدة[42]. وبعد وفاة الصالح نجم الدين أيوب وقدوم ولده المعظم توران شاه من حصن كَيْفا[43] لتولي مقاليد الحكم، التقى به ابن واصل عند الصالحية[44] بصحبة حسام الدين الهذباني، وحضر مجلس المعظم توران شاه، وقد سأل مسألة في المنطق فلم يتصدى لحلها إلا ابن واصل، فأعجب به السلطان وأقبل عليه، وأصبح من رواد مجلسه[45]. وتولى ابن واصل في عهد الظاهر بيبرس تدريس الزاوية التي كان يقرئ فيها للإمام الشافعي إضافة إلى التدريس في الجامع الأقمر، وتوليه قضاء الجيزة والإطفيحية[46].

من خلال ما سبق ذكره عن الصفات والسمات التي تميزت بها شخصية كل من فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ، وجمال الدين محمد بن سالم بن واصل، تتضح الأسباب التي تم اختيارهم من أجلها للقيام بهذه المهمة، سواء من جانب الملك الكامل محمد أو الظاهر بيبرس. كما يُلاحَظ مدى التشابه بين صفات كلا السفيرين، وهي سعة العلم والاطلاع، والحنكة، والدراية، والذكاء، ولا ريب أن مثل هذه الصفات سوف تكون متوائمة مع الإمبراطور فردريك الثاني وابنه مانفريد، اللذين تمتعا بثقافة عالية، وحب للعلم والمطالعة والنقاش والبحث، ولهذا فجاء اختيار السفيرين متشابهاً في شروطه وآلياته رغم بُعد الفترة الزمنية التي تفصل بينهما والتي جاوزت الثلاثة عقود.

ثالثاً: الأوضاع السياسية المحيطة بإرسال السفارتين في الشرق والغرب

---

(42) كانت تجمع ابن واصل بالأمير حسام الدين الهذباني صداقة وطيدة منذ أن كان يطلب العلم في دمشق عام 635هـ/1238م، وعندما اعتقل الأخير في قلعة دمشق في سنة 637هـ/1239م بأمر من الملك الصالح إسماعيل بن الملك العادل أبي بكر محمد بن أيوب، كان يتردد عليه ابن واصل بالزيارة مرات كثيرة، وزادت هذه العلاقة رسوخاً بعد قدوم ابن واصل إلى القاهرة في المحرم من سنة 641هـ/1243م، إذ قابله حسام الدين، نائب السلطنة، بحفاوة شديدة وشمله بإنعامه وإحسانه، على حد تعبير ابن واصل. انظر: ابن واصل، مفرج الكروب، 5: 194، 208، 243، 334؛ ابن واصل، مفرج الكروب، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (بيروت: المكتبة العصرية، 2004م)، ص103.

(43) حصن كَيْفا: هو بلدة وقلعة عظيمة مشرفة على دجلة بين آمد وجزيرة ابن عمر من ديار بكر. انظر: ياقوت بن عبدالله الحموي، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، 1994م)، ج2، ص256.

(44) الصّالحية: قرية بناها الصالح نجم الدين أيوب (637- 647هـ/1240-1249م) لجنده في منطقة السانح. انظر: تقي الدين أحمد بن علي المقريزي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور (القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2009م)، ج1، ق2، ص330.

(45) ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، ص15.

(46) ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، ص299.

أ) الأوضاع قبيل إرسال سفارة فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ

قبيل إرسال الكامل محمد لفخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ سفيراً إلى فرديك الثاني لطلب مساعدته ضد منافسيه من ملوك البيت الأيوبي في بلاد الشام، كانت بلاد الشام تموج في أحداث سياسية يعمها الفوضى والتشرذم، فبعد وفاة الملك العادل الأيوبي، قسمت دولته إلى ثلاث ولايات، الأولى: يتولاها الملك الكامل محمد في مصر، والثانية: بلاد الشام يتولاها المعظم عيسى، والثالثة: بلاد الجزيرة وخلاط يتولاها الأشرف موسى، بالإضافة إلى سلسلة من الولايات الأصغر يتولها أتباع الأسرة الأيوبية كما في حماة وبعلبك وغيرها[47].

بدأ النزاع يدب بين هؤلاء الملوك في نهاية عام 619هـ/1223م، إذ كان المعظم عيسى يخشى من أخويه الكامل محمد والأشرف موسى، ويطمح في حكم مصر والتوسع في إقليم الجزيرة، فجاءه التهديد من الكامل محمد والأشرف موسى، فاضطر إلى الانسحاب إلى دمشق[48]. وكان هذا الأمر بداية الخلاف بين المعظم من جهة، وأخويه الكامل محمد والأشرف موسى من جهة أخرى، فقد أسرع الأشرف إلى المعظم في دمشق سنة 623هـ/1226م وطلب منه توحيد البيت الأيوبي أمام خطر الخوارزميّة[49] الذين أصبحوا يهددون الدولة الأيوبية قاطبة، وكان الأشرف أكثرهم حاجة لهذه الوحدة لمتاخمة بلاده في الجزيرة وخلاط للخوارزمية[50].

استغل المعظم عيسى وجود أخيه الأشرف في دمشق، وقرر اعتقاله ليضمن عدم مخالفته في أمر من الأمور مستقبلاً، ولكن الأخير حلف له بعدم مخالفته، وتعهد بأن يساعده في الاستيلاء على حمص وحماة والوقوف معه ضد الملك الكامل محمد، فلما أُفرج عنه،

---

(47) عز الدين علي بن أبي الكرم ابن الأثير، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1417هـ/1997م)، ص297، ج10، ص327؛ سبط ابن الجوزي، مرآة الزمان، ج22، ص232-233.

(48) أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص227-228؛ ابن الوردي، تتمة المختصر، ج2، ص213-214.

(49) يقصد بالخوارزمية عدة فرق عسكرية تابعة للسلطان جلال الدين بن علاء الدين بن خوارزم شاه، وقد هربت إلى بلاد الشام أمام الزحف المغولي، فأخذ الملوك الأيوبيين يستعملونهم في التنافس فيما بينهم. للمزيد انظر: أسامة زكي زيد، "الخوارزمية ودورهم في الصراع الإسلامي الصليبي في عصر بني أيوب"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج30، (1982م)، ص243-248.

(50) ابن فضل الله العمري، مسالك الأبصار، ج27، ص260..

تنصل من وعوده لأخيه المعظم، "ورجع عن جميع ما قرّره مع أخيه، وتأوّل في أيمانه التي حلفها، بأنه كان مكرهاً عليها"[51].

بعد أن وصل الخلاف بين أبناء الملك العادل إلى هذا الحد، اتجه كل طرف للاستعانة بالقوى الخارجية لتأييده ضد خصومه من إخوانه الملوك، فاستعان الملك المعظم بجلال الدين خوارزم شاه على أخويه السلطان الكامل والملك الأشرف، وبعث جلال الدين خلعة فلبسها المعظم عيسى وشق بها دمشق، واعترف بسيادته وقطع الخطبة لأخيه السلطان الملك الكامل محمد[52].

لم يجد السلطان الكامل محمد بـُداً من الاستعانة بقوة خارجية، فأرسل إلى فردريك الثاني، إمبراطور الدولة الرومانية المقدسة وملك صقلية، طالباً منه الحضور إلى بلاد الشام، مقابل التنازل عن القدس وفتوح صلاح الدين، وأرسل مبعوثاً خاصاً، وهو فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ[53]، الذي كان يعده لمثل هذه المهمات الكبيرة.

وعلى الجانب الغربي، فقد كان اللوم يوجّه بشدة إلى فردريك الثاني من البابوية، وغيرها من القوى الصليبية الأخرى، بعد إخفاق الحملة الصليبية الخامسة على دمياط، بسبب تخاذله عن تقديم الدعم لها، وأنه طالما تذرع بأسباب واهية لتأجيل قيام حملة صليبية إلى الشرق، وأن البابوية استمرت تقبل هذه المسوغات بداية من تولي البابا هونوريوس الثالث الذي اعتلى كرسي البابوية سنة 613هـ/1216م، حيث وافق على قبول تأجيلات فردريك المتكررة من سنة 614هـ/1217م حتى سنة 619هـ/1222م[54].

على أثر ذلك قرّرت البابوية عقد مجمعاً كنسياً عاماً في سنة 620هـ/1223م في فيرينتينو بإيطاليا بزعامة البابا هونوريوس الثالث (Honorius III)، وحضور فردريك الثاني، والنائب البابوي بيلاجيوس الذي حُمّل وزر إخفاق الحملة الخامسة، كما حضره حنّا دي برين (John of Brienne) ملك القدس، ورالف بطريرك القدس، إضافة إلى قادة الطوائف الدينية العسكرية المختلفة. وتقرر في هذا المجمع القيام بحملة صليبية في سنة

---

(51) ابن العديم، تاريخ حلب، ج2، ص661-626؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص205-206.

(52) أبو شامة، الذيل على الروضتين، ص99، 223؛ ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص204؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص256.

(53) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص258.

(54) فيليب دي نوفار، حروب فريدريك الثاني، ترجمة: سهيل ذكار، الموسوعة الشامية، (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، 1995م)، ج34، ص32.

622هـ/1225م، مع ضمان مصالح الإمبراطور فردريك الثاني في المملكة الصليبية في الشرق[55]. ولكن فردريك طلب تأجيل الحملة حتى سنة 625هـ/1227م، فوافق البابا على ذلك[56].

ب) الأوضاع قبيل إرسال سفارة جمال الدين ابن واصل

لم تنه نتائج معركة عين جالوت بانتصار المماليك على المغول، الخطر المغولي كليّة على بلاد الشام، وإنما ظل هذا الخطر قائماً، فما أن تولى الظاهر بيبرس سدة الحكم في سنة 658/1260م، وهو يحاول أن يحد من هذا الخطر بالطرق العسكرية والدبلوماسية، خاصة أنه قد بدا في الأفق أن محاولات تحالف بين الغرب الأوربي والمغول مازالت قائمة، ممثلاً في سفارات الباباوية المتتابعة إلى المغول للتحالف معهم ضد القوى الإسلامية في الشرق[57].

فما أن انتهت صدمة المغول من نتائج معركة عين جالوت، حتى أرسلوا حملة أخرى إلى بلاد الشام في أواخر سنة 658هـ/1260م، حيث تقدمت الحملة إلى حلب، وتمكنت من هزيمة الحامية الإسلامية، والاستيلاء على حلب وقتل بعض سكانها انتقاماً لمقتل قائدهم كتبغا نوين في معركة عين جالوت، ثم واصلت هذه القوات تقدمها إلى حمص، وهناك وقعت معركة كبرى، مُزم فيها المغول، وعادوا أدراجهم إلى ما وراء الفرات[58].

مثلت هذه الحملة المغولية جرس إنذار للظاهر بيبرس في بداية سلطنته الجديدة، لذا قرر اتخاذ كل الأدوات اللازمة للحد من هذا الخطر الداهم، وأبرز هذه الأدوات هي الاتفاقات

---

(55) كان للإمبراطور فريدريك الثاني حقوق وراثية في الشرق الصليبي، إذ كان قد تزوج من وريثة عرش بيت المقدس، الملكة إيزابيلا (Isabella) ابنة حنا دي برين في سنة 612هـ/1215م، وحمل منذ هذا الوقت لقب ملك مملكة بيت المقدس.

Eracles, *L'Estoire d'Eracles Empereur,* in: R.H.D.C.Hist. Occidentaux, Tome, 2, (Paris: 1859), p.357; Kenneth Setton, *A history of Crusaders*, (London: 1931), vol.2, p. 446.

ستيفن رانسمان، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، ط2 (بيروت: دار الثقافة، 1980م)، ج3، ص311.

(56) نوفار، حروب فريدريك، ج34، ص32-33.

(57) للمزيد عن محاولات الباباوية للتحالف مع المغول ضد المسلمين، انظر: سوداي عبدمحمد، "أضواء على التحالف الصليبي، "أضواء على التحالف الصليبي المغولي ضد العراق والمشرق العربي"، مجلة المورد، العراق، مج16، ع4، 1987م، 174-191.

(58) محي الدين ابن عبدالظاهر، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، (الرياض: د.ن، 1369هـ/1976م)، ص96؛ أبو الفدا، المختصر في أخبار البشر، ج2، ص318-320.

الدبلوماسية مع القوى المحيطة، سواء الفرنج في بلاد الشام، أو قوى الغرب الأوروبي، وقد وجد في ما نفريد بن فردريك الثاني (652-663هـ/1254-1266م) صاحب صقلية حليفاً ضد المغول.

كانت العلاقات بين الإمبراطورية الرومانية المقدسة والقوى الإسلامية في الشرق مستمرة منذ العهد الأيوبي، إذ ظلّت قائمة حتى عهد دولة المماليك البحرية، فقد حرص حاكم صقلية مانفرد بن فردريك الثاني على كسب صداقة الظاهر بيبرس، والذي بدوره بادله الحرص نفسه للحفاظ بعلاقة الود التي ربطت بين مصر ومملكة صقلية، وقد جمعت بين الطرفين في هذه المرحلة مصلحة مشتركة، وهي العداء لمغول فارس، كون ملك صقلية كان يقف موقفاً مغايراً من الإدارة المركزية البابوية التي كانت من جهتها تسعى لإقامة تحالف مع مغول فارس[59]. لذا قرر الظاهر بيبرس إرسال المؤرخ جمال الدين سالم بن محمد بن واصل للقيام بهذه المهمة.

وبالنظر إلى ما سبق سرده من أحداث عن الحالة السياسية التي مرت بها المنطقتين اللتين كانتا مجالاً للسفارتين محل الدراسة، نلاحظ أن هناك نقاط تشابه ونقاط اختلاف، ففي حين نجد الظروف السياسية في الغرب لم تتغير منذ عهد فردريك الثاني حتى عهد مانفرد، فكان المحرك الرئيس فيها هو الصراع بين البابوية والإمبراطورية هناك، واستغلال وتوظيف مسألة الحملات الصليبية لتحقيق أهداف الطرفين في أتون هذا الصراع. أما في الشرق الإسلامي فالوضع السياسي اختلف اختلافاً جذرياً خلال الفترة الزمنية الفاصلة بين السفارتين، بسقوط الدولة الأيوبية واعتلاء المماليك سدّة الحكم. كما أن الدوافع الرئيسة لإرسال السفارتين اختلفت بين الدولتين الأيوبية والمملوكية، ففي حين كان الدافع الرئيس لإرسال سفارة ابن شيخ الشيوخ هو الصراع الداخلي بين ملوك الأسرة الأيوبية على السلطة والنفوذ، كان الدافع وراء إرسال سفارة ابن واصل هو الخطر الخارجي الذي كان يهدد المنطقة برمتها، والمتمثل في المغول.

رابعاً: أحداث السفارتين ونتائجهما

أ) سفارة فخر الدين بن شيخ الشيوخ إلى فردريك الثاني

عين السلطان الكامل محمد الأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ مبعوثاً سياسياً خاصاً، وأرسله في خريف سنة 624هـ/1226م إلى صقلية، طالباً المساعدة من الإمبراطور فردريك

(59) نوفار، حروب فريدريك، ص32-33.

الثاني الذي أعرب عن نيته الطيبة تجاه السلطان الكامل، غير أنه لم يعد بشيء إذ كان حينذاك يفكر في تجهيز حملة صليبية قوية إلى الشرق، ولكي يبقى باب المفاوضات مفتوحاً، فقد بعث إلى القاهرة وفدًا مزودًا بهدايا وديّة إلى السلطان الكامل[60]، الذي أبدى استعداداً للتنازل عن القدس وبعض الفتوح الصلاحية[61].

ويشير رنسمان إلى أن الأمير فخر الدين قد زار الإمبراطور فردريك الثاني مرة أخرى في صقلية، حيث توطّدت أواصر الصداقة الحميمية بينهما[62].

وبالتالي فيمكن استنتاج العروض التي قدمها الأمير فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ على اعتباره سفيراً مفوضاً من قبل السلطان إلى الإمبراطور فردريك الثاني، وهي التنازل عن القدس وبعض فتوح السلطان صلاح الدين الأيوبي مقابل قدوم الإمبراطور إلى عكا، وبذلك يحقق الأمير فخر الدين هدفين اثنين في الوقت نفسه، الهدف الأول هدفاً داخلياً، وهو إلزام الملك المعظم على الدخول في طاعة أخيه السلطان الكامل والاعتراف بسيادته[63]. أما الهدف الثاني فهو هدفاً خارجياً، وهو تحويل الحملة الصليبية المزمعة، والتي تلح عليها البابوية من حملة عسكرية دموية إلى حملة سلمية لا تسفك فيها الدماء، يقودها إمبراطور على خلاف مستعر مع البابوية سياسياً وثقافياً، ذلك أن الأمير فخر الدين طلب من الإمبراطور فردريك الثاني إعاقة الحملة المذكورة مقابل الوعود التي بذلها له، والهدايا السخية التي قدمها[64].

---

(60) اشتملت الهدايا على تحف سنية، وفرس خاص بالإمبراطور بمركب ذهب مرصع بالجواهر الفاخرة، وقد استقبل السلطان الكامل هذه الهدايا والوفد المصاحب لها استقبالاً حافلاً، وأقام لهم الإقامات السنية من الإسكندرية إلى القاهرة، واستقبلهم بنفسه في ظاهر القاهرة. انظر:
Claude Reignier Conder, *the Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291 A.D*, (London: 1897), p. 312.

(61) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص337؛ رأفت عبدالحميد، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، (القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998م)، ص160.

(62) رنسيمان، الحروب الصليبية، ج3، ص337.

(63) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص206–207؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص258–259.

(64) فيلكس فابري، جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ترجمة: سهيل زكار، (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، 1995م)، ج43، ص1167.

وبالتحقيق في تاريخ سفارة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى فردريك الثاني، يتضح أنها كانت في أواخر فترة حكم المعظم عيسى، والذي كانت وفاته في غرة ذي الحجة سنة 624هـ/1226م[65].

وقد توصل أ.د. رأفت عبدالحميد إلى ترجيح بشأن تاريخ خروج سفارة ابن شيخ الشيوخ من مصر وتاريخ وصولها إلى صقلية، إذ يرى أن عبارة ابن واصل التي حدد فيها خروج فخر الدين إلى الامبراطور كان في أواخر أيام الملك المعظم عيسى، ولأن المعظم كانت وفاته في شهر ذي القعدة سنة 624هـ/11نوفمبر 1227م، فهذا يعني أن وصول فخر الدين إلى صقلية كان في أواخر سنة 1227هـ أو أوائل سنة 625هـ/ 1228م[66].

والواقع أن اختيار الملك الكامل محمد لفخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ لهذه المهمة كان قراراً صائباً، فهو سياسياً محنكاً، ورجلاً مفكراً ومثقفاً، جمع بين السياسة والدين والفكر والأدب، كما ذكرنا سابقاً، وهو من هذا الجانب كان يتواءم مع شخصية فردريك الثاني الذي سمي بأعجوبة الدنيا في زمانه، حيث عاش في صقلية على مقربة من المؤثرات الحضارية الإسلامية، وكان على اتصال وثيق بثقافتهم ولغتهم، حتى أن اللغة العربية كانت واحدة من ست لغات أتقنها، والذي كان متبحراً في السياسة والحرب والقانون والأدب والهندسة والرياضيات، وامتلك تسامحاً دينياً كبيراً خاصة مع العرب المسلمين، وعلمائهم وأدبائهم الذين كانوا مقربين لديه[67].

وجاء وقت إرسال سفارة فخر الدين بن شيخ الشيوخ مناسباً إلى حد كبير، ففي هذا الوقت كان فردريك الثاني خاضاً لضغط هائل من البابوية للقيام بحملة صليبية واستدارك الإخفاق الكبير الذي منيت به الحملة الصليبية الخامسة، واحتشد من أجل هذه الحملة الجديدة في سنة 625هـ/1227م آلاف من الصليبيين الذين قدموا من مختلف البلاد الأوربية، وقد وصل عددهم إلى أربعين ألف مسلّح، وتجمعوا في ميناء برند يزي في إيطاليا، وذلك استعداداً للانطلاق إلى الأماكن المقدسة تحت قيادة الإمبراطور فردريك الثاني، وسرعان ما تفرقت تلك الحشود بسبب سوء الأحوال الصحية، ومرض الطاعون الذي دفع أعداداً كبير من أفراد الجيش الصليبي إلى الانسحاب، حتى فردريك نفسه، فقد أصابه المرض، وقرر إرجاء الحملة

---

(65) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص224؛ المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص258.

(66) عبدالحميد، قضايا، ص189–190.

(67) سعيد عاشور، الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، (القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1982م)، ج2، ص 995–996.

إلى وقت آخر، وما إن سمعت تلك الجموع قرار الإمبراطور حتى دبّ فيها الهلع والفوضى، وركبت سفنها وعادت إلى بلادها، وأدى ذلك إلى انفراط عقد الحملة[68].

والواقع أن البابا غريغوري التاسع لم يقتنع بمسألة أن الأحوال الصحية هي السبب في تعطيل الحملة، وإنما فردريك نفسه هو السبب، فقد عاد إلى سيرته الأولى من المماطلة والتسويف، وعدّ مرضه تمارضاً، وأصدر الحرمان الكنسي بحقه في سنة 625هـ/1227م، وعاد النزاع من جديد بين الإمبراطورية والبابوية[69].

وتشير الأحداث إلى دور كبير لسفارة فخر الدين يوسف بن شيخ الشيوخ في تعطيل خروج الحملة، وأن سوء الأحوال الصحية أو قلق الإمبراطور من اعتداء الباباوية على ممتلكاته في أوروبا ما هي إلا أسبابا ظاهرية تذرع بها فردريك لعدم خروجه، فإن الحنكة الدبلوماسية لفخر الدين هي التي تسببت في إعاقة خروج الحملة، حيث تمكن من إقناع فردريك الثاني بالعدول عن هذه الفكرة بعد وعده له بأن الكامل محمد سوف يسلّمه القدس دون دماء أو حروب[70].

والواقع أن خروج الحملة الصليبية السادسة إلى القدس كان أمراً محسوماً من جانب الغرب الأوروبي قبل سفارة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ إلى الإمبراطور فردريك، وإنما هذه السفارة تمكنت من تحويل هذه الحملة من حملة عسكرية ضخمة مدعومة من البابوية، إلى حملة سلمية صغيرة لا تُراق فيها الدماء، وخالية من أي مظهر أو مضمون ديني، على اعتبار أن رأسها، وهو الإمبراطور فردريك الثاني محروماً من الكنيسة، ولا شك أن هذا الأمر هو من النتائج الإيجابية لسفارة فخر الدين ابن شيخ الشيوخ[71].

كان البابا غريغوري التاسع على علم بالمفاوضات والمشاورات التي كانت بين الملك الكامل محمد والإمبراطور فردريك الثاني، لذا فقد اتهمه اتهاماً صريحاً بالخيانة للمسيحية، وصرح بأن الإمبراطور ليس صليبياً، وإنما هو ممالئ للمسلمين[72].

---

(68) نوفار، حروب فريريك، ج34، ص991–992؛ روجر أوف ويندوفر، ورود التاريخ، الموسوعة الشامية، ترجمة سهيل زكار، (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، 2000م)، ج39، ص855.

69 Ernst Kantorowicz, *Ferderick the Second 1194-1250*, (London: 1931) p. 185.

(70) فابري، جولات، ج43، ص1176.

(71)فابري، جولات، ج43، ص1176.

(72) عاشور، أوربا العصور الوسطى، ج1، ص396–397.

وقد كانت المهارات السياسية والثقافية التي يمتلكها كل من الإمبراطور فردريك والأمير فخر الدين بن شيخ الشيوخ أساساً في تقريب وجهات النظر بين الطرفين، وقد سهلت كثيراً في التوصل إلى الاتفاق الذي أُبرم بين الطرفين خلال سفارة فخر الدين، وكان هذا الاتفاق هو نواة لما أطلق عليه فيما بعد اتفاقية يافا التي عقدت في 21 ربيع الأول 626هـ/18 فبراير 1229م، فما أن علم الامبراطور بوفاة المعظم عيسى بعد رحيل فخر الدين يوسف بقليل من صقلية، حتى ذهب سريعاً إلى بلاد الشام على رأس كتيبة مكونة من خمسمائة فارس، فوصل إلى عكا في شوال سنة 625هـ/ سبتمبر 1228م، وكان هذا الخروج رغماً عن أنف البابا الذي حاول منع الإمبراطور من السفر بعد قرار الحرمان الكنسي الذي اتخذه ضده(73).

وقد تطورت الأحداث في بلاد الشام بين أبناء البيت الأيوبي، فقد انتزع السلطان الكامل محمد القدس ونابلس من ابن أخيه الناصر داود، وقد اتفق مع أخيه الأشرف موسى باقتسام أملاك ابن أخيهم نتيجة للظروف الدولية المتغيرة، وقدوم الإمبراطور فردريك إلى عكا، فتمت محاصرة دمشق التي كان يتحصن بها الناصر داود في سنة 626هـ/1229م(74).

جاء تكليف الكامل محمد لفخر الدين بن شيخ الشيوخ بإكمال المفاوضات الذي بدأها في صقلية مع الإمبراطور فردريك الثاني، ولكنها الآن في عكا، والتي كانت أبرز بنودها هو التنازل عن القدس، ولكن فخر الدين يوسف ما أن ذهب إلى الإمبراطور حتى اعتذر له عن هذا المطلب بسبب التغيرات التي سادت المنطقة بعد وفاة الملك المعظم عيسى، وأنه أصبح من الصعب التنازل عن القدس خوفاً من إثارة الرأي العام الإسلامي(75).

وقد تمثل تردد الملك الكامل في مسألة تسليم القدس في خطابه لأخيه الملك الأشرف الذي أورده ابن الأثير في سنة 625هـ/1226م حيث يقول:" أعاد الكامل الجواب يقول: إنني ما جئت إلى هذه البلاد إلا بسبب الفرنج، فإنهم لم يكن في البلاد من يمنعهم عما يريدونه، وقد عمروا صيدا، وبعض قيسارية، ولم يُمنعوا، وأنت تعلم أن عمنا السلطان صلاح الدين فتح البيت المقدس، فصار لنا بذلك الذكر الجميل على تقضّي الأعصار وممر الأيّام، فإن أخذه

---

(73) سعيد أحمد برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، (بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1404هـ/1984م)، ص504-505.

(74) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص431-432.

(75) برجاوي، الحروب الصليبية في المشرق، ص507.

الفرنج حصل لنا من سوء الذكر وقبح الأحدوثة ما يناقض ذلك الذكر الجميل الذي ادخره عمنا، وأي وجه يبقى لنا عند الناس وعند والله تعالى؟"[76].

ويرى أ.د. رأفت عبد الحميد[77] أن السلطان الكامل كانت له سياسة واضحة وتكتيكاً سياسياً محدداً في مسألة تسليم بيت المقدس إلى الفرنج، وهي أن تسليم بيت المقدس إلى فردريك مثّل مناورة سياسية حتى يحافظ بها على "الديار المصرية" التي أصبحت الهدف الأول للحملات الصليبية في هذه المرحلة، وأنه لا مانع لديه من التنازل عن الساحل وبيت المقدس وغزة وغيرها من الساحل، بشرط أن لا يكون للصليبيين في مصر موطئ قدم، لأن "الديار المصرية" هي عاصمة الدولة، وكرسي المملكة، ودفع الفرنج عنها هو من أهم الوجوه، ولو ملوكها "لم يبق بالشام ولا غيره معهم ملكٌ لأحد"[78] "وفي ملكهم لها بوار الإسلام بالكلية"[79].

طالت مدة المفاوضات بين الجانبين التي استمرت قرابة خمسة أشهر[80]، ولم يتمكن فخر الدين من الوصول إلى وجهات نظر متقاربة، ويبدو أنه قصد المماطلة حتى يتم للسلطان الكامل محمد الاستيلاء على دمشق، أو أن يذهب فردريك من حيث أتى إلى أوروبا، وفي هذه الأثناء قام الإمبراطور ببعض الأعمال العسكرية في بلاد الشام للضغط على السلطان الكامل محمد وإرغامه على تسليم القدس إليه، وفي هذه الحالة قرر السلطان الكامل قطع المفاوضات، وأصدر تعليماته إلى فخر الدين بهذا الأمر[81].

وقد لعبت العلاقة الحسنة بين الأمير فخر الدين ابن شيخ الشيوخ والإمبراطور فردريك الثاني منذ لقائهما الأول في صقلية دوراً مهماً في نجاح مفاوضات عكا، وانعكس ذلك فيما أنعم به الإمبراطور على فخر الدين بعد تمام صلح يافا في سنة 626هـ/1229م، حيث منحه رتبة "فارس"، وامتياز بأن يضع الرنك الإمبراطوري على رايته ودرعه بعد استئذان الملك الكامل محمد[82].

---

(76) ابن الأثير، الكامل في التاريخ، ج10، ص432.

(77) عبدالحميد، قضايا، ص162.

(78) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص15.

(79)ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص19.

(80) W. B. Stevenson, *The Crusaders in the East*, (Beirut: Librairie du Liban, 1968), p. 311.

(81) المقريزي، السلوك، ج1، ق1، ص266.

(82) عبدالحميد، قضايا، ص212.

ثم تمثل آخر فصل من فصول هذه العلاقة، عندما قرر الطرفان عقد معاهدة يافا الشهيرة في 21 ربيع الأول 626هـ/18فبراير1229م[83]، والتي جاءت ثمرة لجهود فخر الدين بن الشيخ الدبلوماسية بين الطرفين، وبفضل الصداقة التي أقامها مع الإمبراطور فردريك منذ سفارته إلى صقلية في سنة 624هـ/1226م، وبموجب هذه المعاهدة تنازل الكامل محمد عن القدس إلى الإمبراطور فردريك الثاني.

ب) سفارة جمال الدين محمد بن سالم بن واصل إلى مانفريد

السياسة الخارجية للظاهر بيبرس كانت تسير في اتجاه حفظ التوازنات بين أعدائه حتى يتمكن من التفرغ لكل عدو منهم على حدة، لذا قرر عقد اتفاقية مع الملك مانفريد بن فردريك الثاني ملك صقلية ضد مغول فارس في سنة 658هـ/1261م، وقد أوفد لهذا الغرض المؤرخ جمال الدين ابن واصل، وبصحبته مجموعة من الهدايا التي كان من جملتها عدد من الزرافات وبعض أسرى عين جالوت من المغول، تعبيراً عن الصداقة بين الجانبين، وتأكيداً على قوة الدولة المملوكية الفتية[84].

وقد تحدثت المصادر العربية أن السلطان الظاهر بيبرس قد أمر محمد بن سالم ابن واصل ليذهب إلى صقلية ويقابل الملك مانفريد ابن فردريك الثاني[85]. ويذكر أبو الفداء مزيداً

---

(83) يُشير أ.د. رأفت عبدالحميد إلى أن اتفاقية يافا قد حملت بين طياتها فكرة جديدة تُطرح لأول مرة في قضية السيطرة على بيت المقدس بين المسلمين والصليبيين، وهي فكرة "التدويل"، أي تدويل بيت المقدس بحيث تكون الأماكن المقدسة الإسلامية بأيدي المسلمين، ويقيمون شعائرهم الدينية فيها بسلام، ويُشرف عليها أفراد من المسلمين، والأماكن المقدسة المسيحية تكون بأيدي الصليبيين، وتُقام فيها شعائرهم، مع ضمان السلام بين الطرفين. انظر: عبدالحميد، قضايا، ص197.

(84) بيبرس المنصوري الدوادار، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد س. ريتشاردز، (بيروت: مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، 1419هـ/1998م) ص70؛ اليونيني، ذيل مرآة الزمان، ج2، ص125؛ شافع بن عباس علي، حسن المناقب السِّرية المنتزعة من السيرة الظاهرية؛ تحقيق ونشر: عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، (الرياض: مطابع القوات المسلحة، 1396-1976م)، ص102؛ بدر الدين محمود بن أحمد بن موسى العيني، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1407هـ/1987م)، ج1، ص290.

(85) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص245؛ أبو الفداء، المختصر، ج4، ص38-39؛ الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص447.

من تفاصيل هذه السفارة، حيث يشير إلى أن ابن واصل ما أن وصل إلى الإمبراطور حتى احتفل به وعامله باحترام، وأقام عنده في مدينة أنبولية[86]، واجتمع معه عدة مرات[87].

كانت شخصية مانفريد شخصية مثقفة ومستنيرة، مما دفعه إلى تقدير سفير السلطان العالم المتبحر جمال الدين بن واصل ومبادلته الاحترام والتقدير، وهذا دفع ابن واصل إلى مخاطبة عقل الملك الألماني بما يهوى، ذلك أنه حاول إرضاء فضوله الفكري، فذكر أنه في إحدى مقابلاته التي أجراها مع الإمبراطور: "قال الإمبراطور: ياقاضي، ليس لدي ما أسألك عنه عن حلال وحرام في دينك الذي أنت فيه قاض العربية أو الفقه"، ثم سأله ثلاثين سؤالاً عن مسائل تتعلق بعلم المناظر (الهندسة)، وفي صباح اليوم التالي أجاب ابن واصل عن هذه الأسئلة في مجلد صغير، مما أسبغ عليه احترام وتقدير الإمبراطور، الذي رسم علامة الصليب وقال له: "سألناك عن أشياء لا يعرفها إلا الفلاسفة الأقدمون، فأجبت عنها، وليس معك كتب ولا ما تستعين به، مثلك يكون قسيساً". وقد كان ابن واصل ممتناً على إكرام الإمبراطور له، فألّف له رسالة في المنطق، تُعرف باسم "الرسالة الأنبرورية"[88].

وعقب عودة ابن واصل، رسم صورة بليغة للإمبراطور وامتدحه ووصف أخلاقه ومزاياه، فقال عنه:" كان فاضلاً، محباً للحكمة والمنطق والطب، مائلاً إلى المسلمين لأن مقامه في الأصل ومرباه بلاد صقلية، وهو وأبوه وجده كانوا ملوكها، وأهل تلك الجزيرة غالبهم المسلمون... ووجدته متميزاً ومحباً للعلوم العقلية، يحفظ عشر مقالات من كتاب إقليدس"[89].

كما قدم ابن واصل للظاهر بيبرس عقب عودته من صقلية وصفاً مفصلاً لمدينة لوسيراً التي كان معظم سكانها من المسلمين فيقول: "وبالقرب من البلد التي كنت فيه، مدينة تسمى لوجارة، أهلها كلهم مسلمون من أهل جزيرة صقلية يقام فيها الجمعة ويعلن بشعار الإسلام"[90].

---

(86) أنبولية، ويقال لها بولية، هي مدينة نابولي الحالية، وهي مملكة على بحر الروم. القلقشندي، صبح الأعشى، ج5، ص410

(87) أبو الفدا، المختصر، ج4، ص38.

(88) ابن واصل، مفرج الكروب، ج6، ص206؛ أبو الفدا، المختصر، ج4، ص38؛ الصفدي، أعيان العصر، ج4، ص447.

(89) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص243؛ أبو الفداء، المختصر، ج4، ص39.

(90) أبو الفداء، المختصر، ج4، ص38-39.

وأبلغ الظاهر بيبرس بالاحترام الذي يعامل به الإمبراطور السكان، وأنه كان يسند إدارة شؤونه الخاصة إلى الإداريين من المسلمين، وكيف كان يحترم الإسلام وشعائره، "ووجدت أكبر أصحاب الإمبراطور منفريدا المذكور مسلمين، ويعلن في معسكره بالآذان والصلاة"[91]. وفي هذا إشارة إلى اطلاع ابن واصل على الثكنات العسكرية للجيش الصقلي، والذي كان يضم فرقة من الجند المسلمين، كما أطلع السلطان على أن الإمبراطور يشرع في بناء بيت العلم "دار علم" المخصص لجميع "العلوم النظرية"[92].

أطلع ابن واصل الظاهر بيبرس عن الحالة السياسية لصقلية في هذا الوقت، وعن نزاع البابا مع فردريك الثاني وولديه كونراد ومانفرد، وعن التحالف بين البابوية والملك الفرنسي شارل أنجوا، فقال: "إن البابا قد حرم منفريدا لميله إلى المسلمين وخرقه ناموس شرعهم، والباب برومية هو خليفة المسيح عندهم، والقائم مقامه، وإليه التحريم والتحليل...وهو الذي يلبس الملوك تيجان الملك ويقيمهم"[93].

وبهذا فقد تمكن ابن واصل من تقديم تقرير سياسي وعسكري للظاهر بيبرس عن مملكة صقلية والأوضاع السياسية العامة في أوروبا في هذا الوقت، مما يسمح له من تقييم علاقاته الخارجية، وإقامة التوازنات التي تمكنه من الحد من الأخطار التي تهدد دولته خاصة هجمات المغول في بلاد الشام، إذ تعهد مانفريد بعرقلة أية حملة فرنجية جديدة تحاول الخروج من أوروبا تجاه الدولة المملوكية، وتنبيه الدولة المملوكية عن أي نشاط فرنجي يظهر في أوروبا بقصد تقديم المساعدة إلى الإمارات الفرنجية في بلاد الشام.

وبالنظر إلى نتائج السفارتين نجد أنهما نجحا في توطيد أواصر العلاقات بين الطرف الإسلامي المجاهد ضد الصليبيين في الشرق، وبين أباطرة الإمبراطورية الرومانية المقدسة من أسرة الهوهنشتاوفن، هذه العلاقات التي انعكست على صورة التفاهم السياسي والعسكري بين الطرفين في كثير من الملفات المتعلقة بالأوضاع السياسية في الداخل والخارج.

---

(91) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص248؛ أبو الفداء، المختصر، ج4، ص39.

(92) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص248.

(93) ابن واصل، مفرج الكروب، ج4، ص249.

الخاتمة Conclusion:

يُستنتج مما سبق عرضه عن سفارتي فخر الدين يوسف ابن شيخ الشيوخ ومحمد بن سالم بن واصل إلى الإمبراطورية الرومانية المقدسة، أن هذه السفارات كانت تسير في الإطار العام للسياسة الدبلوماسية للقوتين الإسلاميتين اللتين حملتا عبء الجهاد الإسلامي ضد الصليبيين في العصر الوسيط، إذ مثّلت هذه السفارات حلقة من حلقات هذه السياسة. إلا أن هناك اختلافاً جوهرياً بين السفارتين يعكس مدى الالتزام أو التخلي عن الدور الجهادي المفروض على هذه القوى. فالسفارة الأيوبية كانت تعبير جلي عن تخلي الدولة الأيوبية عن هذا الدور الجهادي الكبير، فكان الهدف الأساس وراء هذه السفارة هو عقد تحالف مع فردريك الثاني لصالح الملك الكامل ضد خصومه من إخوانه الملوك في بلاد الشام، على حساب التنازل عن القدس، أي أنه تحالف ناجم عن حروب أهلية داخلية، عمّت الدولة الأيوبية منذ وفاة صلاح الدين الأيوبي حتى نهايتها، مما عُدّ هذا التحالف تعبيراً عن مصالح خاصة على حساب المصلحة العامة التي كان ينادي بها الرأي العام الإسلامي، وهي إزالة الاستيطان الصليبي الجاسم على الأراضي الإسلامية. أما على الجانب المملوكي، فقد كان التحالف يسير في خط آخر يهدف إلى التصدي لخطر قادم على المنطقة بكاملها، وهو الخطر المغولي، إذ كان إرسال ابن واصل يهدف إلى عقد تحالف لتحييد موقف الإمبراطورية الرومانية المقدسة من الصراع الدائر بين دولة المماليك والمغول، وفي هذا تعبير جلي عن تمسك الدولة الجديدة، دولة المماليك، بالدور الجهادي ضد الصليبيين، مما منحها شرعية كبيرة أمام الرعية. وفي المجمل فقد حققت السفارتان أهدافهما بنجاح، إذ تمكنت من تنسيق الجهود في كثير من الملفات المتعلقة بالأوضاع السياسية في الداخل والخارج بين كل من الدولتين الأيوبية والمملوكية من جهة، والإمبراطورية الرومانية المقدسة من جهة أخرى.

Bibliography - **قائمة المصادر والمراجع**

اولا المصادر العربية:

- ابن الأثير، علي بن أبي الكرم، الكامل في التاريخ، تحقيق: عمر عبدالسلام تدمري، (بيروت: دار الكتاب العربي، 1417هـ/1997م).

Ibn al-Athīr, *Al-Kāmil fī al-Tārīkh*, ed. O. A. Tadmurī, Beiurt 1997.

- الأصفهاني، محمد بن محمد، الفتح القسي في الفتح القدسي، (القاهرة: دار المنار، 1425هـ/2004م).

Al-Isfahānī, M., *Al-Fath al-Qassī fī al-Fath al-Qudssī*, Cairo 2004.

- البيضاوي، عبدالله بن عمر، أنوار التنزيل وأسرار التأويل، تحقيق: محمد عبدالرحمن المرعشلي، (بيروت: دار إحياء التراث العربي، 1418هـ).

Al-Baydāwī, A. O., *Anwār al-Tanzīl fī Asrār al-Ta'wīl*, ed. M. A. al-Mar'ashlī, Beiurt 1418 AH.

- ابن تغري بردي، أبو المحاسن يوسف، النجوم الزاهرة في ملوك مصر القاهرة، (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1963م).

Ibn Taghrī Birdī, A., *Al-Nujoūm al-Zāhira fī Muluk al-Qāhira*, Cairo 1963.

- الحموي، ياقوت بن عبدالله، معجم البلدان، (بيروت: دار صادر، 1994م).

Al-Hamawī, Y., *Mu'jam al-Buldān*, Beiurt 1994.

- الحنبلي، عبدالحي بن أحمد بن محمد، شذرات الذهب في أخبار من ذهب، تحقيق: محمود الأرناؤوط، (دمشق: دار ابن كثير، 1406هـ/1986م).

Al-Hanbalī, A. A., *Shadharāt al-Dhahab fi Akhbār man Dhahab*, ed. M. al-Aran'out, Damascus 1986.

- دي نوفار، فيليب، حروب فريدريك الثاني، ترجمة: سهيل ذكار، الموسوعة الشامية، (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، 1995م).

Philip of Novara, *The Wars of Frederick II against the Ibelins in Syria and Cyprus*, trans. John L. La Monte. New York: Columbia University Press, 1936. Arabic trans. S. Zakkar, in *The Syrian Encyclopedia*, Damascus 1995.

- الدوادار، بيبرس المنصوري، زبدة الفكرة في تاريخ الهجرة، تحقيق: دونالد س.

ريتشاردز، (بيروت: مطبعة مؤسسة حسيب درغام وأولاده، 1419هـ/1998م).
Baybars al-Mansoūrī, *Zubdat al-Fikrah fi Tarīkh al-Hijrah*, ed. D. Richard, Beuirt 1998.

– الذهبي، شمس الدين محمد بن أحمد، سير أعلام النبلاء، تحقيق شعيب الأرناؤوط، ط3، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1985م).
Al-Dhahabī, Sh. M., *Siyar A'lam al-Noubalā'*, ed. Sh. Al-Arna'out, Beuirt 1985.

– ----- العبر في خبر من غبر، تحقيق: محمد السعيد زغلول، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1985م).
Al-Dhahabī, Sh. M., *Al-'Ibar fi Khabar man Ghabar*, ed. M. A. Zaghloul, Beiurt 1985.

– سبط ابن الجوزي، يوسف بن قزأوغلي، مرآة الزمان في تواريخ الأعيان، (بيروت: دار الرسالة العالمية، 2013م).
Sebt Ibn al-Jawzī, Y., *Mer'at al-Zamān fi Tawarīkh al-A'yān*, Beiurt 2013.

– السبكي، تاج الدين عبدالوهاب بن تقي الدين، طبقات الشافعية الكبرى، تحقيق: محمود محمد الطناحي وعبدالفتاح الحلو، ج8، ط2، (د.م: دار هجر، 1413هـ/1992م).
Al-Soubkī, T. A., *Tabaqāt al-Shafi'iyyah al-Koubrā*, ed. M. al-Tanāhī and A. al-Hilw, vol. 8, n.p. 1992.

– أبو شامة، عبد الرحمن بن إسماعيل، تراجم رجال القرنين السادس والسابع المعروف بالذيل على الروضتين، تحقيق: إبراهيم شمس الدين، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1422هـ/2002م).
Abū Shāmah, A., *Tarājem Rejāl al-Qarnayn al-Sādes wa-l-Sābi' al-Ma'rouf bi al-Dhayl 'ala al-Rawdatyn*, ed. I. Shams el-Din, Beiurt 2002.

– ------ الروضتين في أخبار الدولتين النورية والصلاحية، تحقيق: إبراهيم الزيبق، (بيروت: مؤسسة الرسالة، 1997م).

Abū Shāmah, A., *Al-Rawdatyn fi Akhbār al-Dawlatyn al-Nouriyyah wa-l-Salāhiyyah*, ed. I. al-Zaibaq, Beiurt 1997.

- الصفدي، خليل بن أيبك بن عبدالله، أعيان العصـــر وأعوان النصـــر، تحقيق: علي أبو زيد وآخرون، (بيروت ودمشق: دار الفكر المعاصر، 1418هـــ/1998م).

Al-Safadī, Kh., *A'yān al-'Asr wa-A'wān al-Nassr*, ed. A. Abū Zayd et al., Beiurt 1998.

- ------، الوافي بالوفيات، تحقيق: مجموعة محققين، (فسبادن: فرانز شتاين، 1974- 1997م).

Al-Safadī, Kh., *Al-Wafi bi-l-Wafayāt*, Wasbaden 1997.

- العباسي، الحسن بن عبدالله، آثار الأول في ترتيب الدول، تحقيق: عبدالرحمن عميرة، (بيروت: دار الجيل، 1409هـــ/1989م).

Al-'Abbāsī, A., *Athār al-Awal fi Tartīb al-Dewal*, ed. A. 'Umayrah, Beiurt 1989.

- العباسي، شافع بن عباس، حسن المناقب الســـرية المنتزعة من السيرة الظاهرية؛ تحقيق ونشر: عبدالعزيز بن عبدالله الخويطر، (الرياض: مطابع القوات المسلحة، 1396/1976م).

Al-'Abbāsī, Sh., *Husn al-Manāqeb al-Serriyyah al-Muntaza'ah men al-Sīrah al-Zāhyriyyah*, ed. A. al-Khwayter, Riyadh 1976.

- ابن عبدالظاهر، محي الدين، الروض الزاهر في سيرة الملك الظاهر، تحقيق: عبدالعزيز الخويطر، (الرياض: د.ن، 1369هـــ/1976م).

Ibn Abdel-Zaher, M., *Al-Rawd al-Zāher fi Sīrat al-Malek al-Zāher*, ed. A. al-Khwayter, Riyadh 1976.

- ابن العديم، عمر بن أحمد بن هبة الله، بغية الطلب في تاريخ حلب، تحقيق: سهيل زكّار، (بيروت: دار الفكر، د.ت).

Ibnal-'Adīm, O., *Bughyat al-Talab fi Tārīkh Halab*, ed. S. Zakkar, Beiurt n.d.

- العيني، محمود بن أحمد بن موسى، عقد الجمان في تاريخ أهل الزمان، تحقيق: محمد محمد أمين، (القاهرة: الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1407هـــ/1987م).

Al-'Aynī, M., *'Eqd al-Jumān fi Tārīkh Ahl al-Zamān*, ed. M. Amīn, Cairo 1987.

- فابري، فيلكس، جولات الراهب الدومينيكاني فيلكس فابري ورحلاته، ترجمة: سهيل زكار، (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، 1995م).

Felix Fabri, *Les errances de Frère Félix, pélerin en Terre sainte, en Arabie et en Egypte (1480–1483)*, tome I: Premier et deuxième traités. Montpellier 2000. Arabic trans. S. Zakkar, Damascus 1995.

- أبو الفدا، عماد الدين إسماعيل بن علي، المختصر في أخبار البشر، علق عليه ووضع حواشيه: محمود أيوب، (بيروت: دار الكتب العلمية، 1417هـ/1997م.

Abul-Fidā', E., *Al-Mukhtasar fi Akhbār al-Bashar*, ed. M. Ayoub, Beiurt 1997.

- ابن الفراء، الحسين بن محمد، رُسل الملوك ومن يصلح للرسالة والسفارة، تحقيق: صلاح الدين المنجد، (بيروت: دار الكتاب الجديد، 1972م).

Ibn al-Farrā', *Rusul al-Mulūk wa-man Yasloh li-l-Resālah wa-l-Sefārah*, ed. S. al-Munajjed, Beiurt 1972.

- القرطبي، محمد بن أحمد القرطبي، الجامع لأحكام القرآن، تحقيق: أحمد البردوني وإبراهيم أطفيش، ط2 (القاهرة: دار الكتب المصرية، 1384هـ/1964م).

Al-Qurtubī, M., *Al-Jami' li-Ahkam al-Qur'an*, ed. A. al-Bardounī and I. Atfīsh, Cairo 1964.

- القلقشندي، أحمد بن علي القلقشندي، صبح الأعشى في صناعة الإنشاء، (القاهرة: المطبعة الأميرية، 1913–1919م).

Al-Qalqashandī, A., *Subh al-A'sha fi Senā'it al-Inshā'*, Cairo 1919.

- الكتبي، صلاح الدين محمد بن شاكر، فوات الوفيات والذيل عليها، تحقيق: إحسان عباس، (بيروت: دار صادر، د.ت).

Al-Kutubī, S., *Fawāt al-Wafayāt wa-l-Dhayl 'Alayhā*, ed. I. Abbās, Beiurt n.d.

- المقريزي، أحمد بن علي، المواعظ والاعتبار في ذكر الخطط والآثار، تحقيق: أيمن فؤاد سيد، (لندن: مؤسسة الفرقان الإسلامي، 2003م).

Al-Maqrīzī, T., *Al-Mawa'iz wa-l-I'tibār fī Dhikr al-Khitat wa-l-Athār*, ed. A. F. Sayyed, Lonodn 2003.

- المقريزي، تقي الدين أحمد بن علي، السلوك لمعرفة دول الملوك، تحقيق: محمد مصطفى زيادة وسعيد عبدالفتاح عاشور(القاهرة: دار الكتب والوثائق القومية، 2009م).

Al-Maqrīzī, T., *Al-Sulūk li-Ma'rifat Dewal al-Mulūk*, ed. M, Zyādah and S. Ashour, Cairo 2009.

- المنذري، عبدالعظيم بن عبدالقوي المنذري، التكملة لوفيات النقلة، حققه وعلق عليه: بشّار عواد معروف، ط2، (بيروت: مؤسسة الرسالة، د.ت).

Al-Mundhirī, A., *Al-Takmilah li-Wafayāt al-Naqalah*, ed. B. 'Awwad, Beiurt n.d.

- ابن منظور، محمد بن مكرم بن علي، لسان العرب، ط3 (بيروت: دار صادر، 1414هـ).

Ibn Manzūr, M., *Lisān al-'Arab*, Beiurt 1414 AH.

- ابن واصل، محمد بن سالم، مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، تحقيق: جمال الدين الشيال وآخرون، (القاهرة: دار القلم، د.ت).

Ibn Wāsel, *Mufarrej al-Kuroūb fī Akhbār Banū Ayyoūb*, ed. J. al-Shayyal, Cairo n.d.

- ابن الوردي، عمر بن مظفر بن عمر، تتمة المختصر في أخبار البشر المعروف بتاريخ ابن الوردي، تحقيق: أحمد رفعت البدراوي، (بيروت: دار المعرفة، 1389هـ/1970م).

Ibn al-Wardī, O., *Tatemmat al-Mukhtasar fī Akhbār al-Bashar or Tārikh Ibn al-Wardī*, ed. R. al-Badrawī, Beiurt 1970.

- ويندوفر، روجر أوف، ورود التاريخ، الموسوعة الشامية، ترجمة سهيل زكار، (دمشق: دار الفكر للطباعة والنشر، 2000م).

Roger of Wendover, *Historiarum*, Arabic trans. S. Zakkar, Damascus 2000.

- اليونيني، قطب الدين محمد بن موسى، ذيل مرآة الزمان، (القاهرة: دار الكتاب

الإسلامي، 1413هـ/1992م).
Al-Younīnī, Q., *Dhayl Mer'āt al-Zamān*, Cairo 1992.

ثانيا المصادر والمراجع الأجنبية:

Amitai-Preiss, *Mamluks Mongols and: The Mamluk-Ilkhanid war, 1260-1281*, (Cambridge: Cambridge University Press, 1995).

Conder, Claude Reignier, the Latin Kingdom of Jerusalem 1099-1291 A.D, (London 1897).

Eracles, *L'Estoire d'Eracles Empereur,* in: R.H.D.C.Hist. Occidentaux, Tome, 2, (Paris 1859).

Kantorowicz, Ernst, *Ferderick the Second 1194-1250*, London: 1931).

Setton, Kenneth, A history of Crusaders, (London 1931).

Stevenson, William Barron , *The Crusaders in the East*, (Beirut Librairie du Liban, 1968).

ثالثا المراجع العربية والمعربة:

- إبراهيم، رجب عبدالجواد، المعجم العربي لأسماء الملابس، (القاهرة: دار الآفاق العربية، 1423هـ).

Ibrahim, R., *Al-Mu'jam al-'Arabī li-Asmā' al-Malābes*, Cairo 1423 AH.

- برجاوي، سعيد أحمد، الحروب الصليبية في المشرق، (بيروت: منشورات دار الآفاق الجديدة، 1404هـ/1984م).

Berjawi, S., *Al-Hurūb al-Salībīyyah fī al-Mashreq*, Beiurt 1984.

- رانسمان، ستيفن، تاريخ الحروب الصليبية، ترجمة: السيد الباز العريني، ط2 (بيروت: دار الثقافة، 1980م).

Runciman, S., *History of the Crusades*, Arabic. trans. A. al-'Arini, Beiurt 1980.

- زيد، أسامة زكي، "الخوارزمية ودورهم في الصراع الإسلامي الصليبي في عصر بني أيوب"، مجلة كلية الآداب، جامعة الإسكندرية، مج30، (1982م).

Zayd, U., Al-Khwārizmiyyah wa-Dawrahum fī al-Serā' al-Islāmī-al-Salībī fī 'Asr banī Ayyoūb, *Journal of the Faculty of Arts,*

Alexandria University, 30 (1982).

- سفر، حسن محمد، "السفارات في النظام الإسلامي"، مجلة البحوث الفقهية المعاصرة، س3، ع9، (1411ه).

Safar, H. M., Al-Sefārat fī al-Nizām al-Islāmī, *Journal of the Contemporary Researches* 9 (1411 AH).

- سوداي، عبد محمد، "أضواء على التحالف الصليبي المغولي ضد العراق والمشرق العربي"، مجلة المورد، العراق، مج16، ع4، 1987م.

Swadī, A., Adwā' 'ala al-Tahāluf al-Salībī al-Maghoūlī ded al-Irāq wa-l-Mashreq al-'Arabī, *Journal of al-Mawrid* 16/4 (1987).

- ضميرية، عثمان بن جمعة، السفارة والسفراء في الإسلام، (جدة: رابطة العالم الإسلامي، 1999م).

Damīrīyyah, U., *Al-Sefārah wa-l-Sufarā' fī al-Islam*, Jeddah 1999.

- عاشور، سعيد، أوروبا العصور الوسطى، (القاهرة: مكتبة الأنجلو المصرية، 1986م).

Ashour, S., *Europa fī al-'Usūr al-Woustā*, Cairo 1986.

- --------، الحركة الصليبية صفحة مشرقة من تاريخ الجهاد العربي في العصور الوسطى، (القاهرة: مكتبة الأنجلو، 1982م).

Ashour, S., *Al-Harakah al-Salībiyyah*, Cairo 1982.

- عبدالحميد، رأفت، قضايا من تاريخ الحروب الصليبية، (القاهرة: دار عين للدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، 1998م).

'Abdul-Hamīd, R., *Qadāyah fī al-Hurub al-Salībiyyah*, Cairo 1998.

- عبد الكريم، سمير حسين عبدالكريم، خلفاء صلاح الدين عند ابن واصل في كتابه مفرج الكروب في أخبار بني أيوب، دراسة تاريخية منهجية 589-648هـ/1194-1260م، (غزة، رسالة ماجستير غير منشورة، 2013م).

Abdel-Karīm, S., Khoulafā' Salāh Eddīn 'enda ibn Wāsel fī Kitābeh Mufarrej al-Kuroūb fī Akhbār banī Ayyoūb, MA thesis, Gaza 2013.

- الغامدي، ريهام علي يحيى، "دور كتاب ديوان الإنشاء في العلاقات الدولية"، مجلة القراءة والمعرفة، جامعة عين شمس، كلية التربية، الجمعية المصرية للقراءة والمعرفة، ع206، (ديسمبر 2018م).

Al-Ghamdī, R. Y., Dawr Kuttāb Dewān al-Inshā' fī al-'Ilaqāt al-Dawliyyah, *Journal of Reading and Knowledge, Faculty of Education, Ain Shams University* 206 (2018).

- مراد، بركات محمد، "السفارات العربية: رؤية تاريخية"، مجلة شؤون اجتماعية، جمعية الاجتماعيين في الشارقة، مج24، ع95، (2007).

Mourād, B., Al-Sifarāt al-'Arabiyyah: Ru'yah Tārīkhiyyah, *Journal of Social Afairs*, 24/95 (2007).

- ناصف، أحمد عبدالسلام، "أغراض السفارات إلى مصر في العصر المملوكي: القوى الإسلامية والمغول أنموذجاً 648-923هـ/1250-1517م"، مجلة الاستواء، جامعة قناة السويس، (2017م).

Nassef, A., Aghrād al-Sifarāt elā Misr fī al-'Asr al-Mamlūkī: al-Qiwā al-Islāmiyyah wa-l-Maghoūl Unmodhajan 1250-1517 AD, *Journal of al-Istwa'* (2017).

- نقلي، آسيا سليمان، "السفارات المتبادلة في عصر صلاح الدين الأيوبي (569-589هـ/1179-1193م"، مجلة فكر وإبداع، رابطة الأدب الحديث، الرياض، ج4، (2007م).

Nouqalī, A., Al-Sifarāt al-Mutabādalah fī 'Asr Salāh Eddīn al-Ayyoubī 1179-1193 AD, *Journal of Fikr wa-Ibdā'* 4 (2007).